

بعد الحمد جاء بالشهادتين

[وأشار إلى الله وحده لا شريك له إقرارا به وتوحيدها]. الشرح بعد أن حمد الله وأثنى عليه جاء بالشهادتين. وقد رُوي في بعض الأحاديث: { كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء } أخرجه أبو داود برقم (4841) في الأدب، باب: "في الخطبة والترمذى" (1106) في النكاح، باب: "ما جاء في خطبة النكاح، وأحمد في مسنده (2/ 1143)، وابن حبان برقم (579)، (1994)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-. قال الترمذى: حديث حسن صحيح غريب، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني برقم (169). أي: المقطوعة والمتشولة، ولكنه حديث ضعيف. * قوله: (أشهد أن لا إله إلا الله). هذه الشهادة الأولى وهي المقدمة، وهي متضمنة للشهادة الثانية المتضمنة للعبادة كلها؛ فشهادته أن لا إله إلا الله تقتضي إفراد وتحصيص الله بالألوهية والألوهية مأخوذة من التاله وهو التعبد؛ يعني: التحبب والتودد إليه سبحانه، ويدخل في ذلك كل أنواع التعبد. والعبادة هي كما قال ابن القيم -رحمه الله- "غاية الحب مع غاية الذل" ولهذا قال -رحمه الله تعالى- في نوبته: وعبادة الرحمن غاية حبه مع ذل عابده بما قطّباه أي: ركناً أساسياً. وهي: "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة" كما عَرَفَها شيخ الإسلام -رحمه الله- بذلك العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص 8. . فيدخل فيها قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح، فعندهما تشهد لله - سبحانه وتعالى - بتوحده وتفرده بالألوهية والعبادة، فكأنك تعرف بأنه يجب عليك أن تشهد له سبحانه! كيف تقر بأنه إلهك ولا تاله؟! فالتأله هو التذلل والتعبد، أي: الطاعة والاتباع والامتثال مع المحبة والخوف والتعظيم، أو باختصار: هو غاية الحب مع غاية الذل. فإن قوله: أشهد أن لا إله إلا الله، أي: أقر واعترف أنه لا معبد بحق إلا الله. وقد اشتملت هذه الكلمة على نفي وإثبات، فاللفني (إلا الله) والإثبات (إلا الله). * قوله: (وحوه لا شريك له). تأكيد لذلك الإقرار (وحوه) تأكيد للإثبات (إلا الله)، (لا شريك له) تأكيد للنفي (إلا الله). فهو سبحانه لا شريك له في ملكه وفي اسمائه الحسنى وصفاته العلى. * قوله: (إقرارا به وتوحيدها) أي: اعترافا باللسان بأنه لا معبد بحق سواه، (توحيدها) أي: إقرارا وإخلاصا له بذلك سبحانه وتعالى في كل عبادة قوله أو فعلية أو اعتقادية. تبيهات: التبيه الأول: إن المقصود من هذه الكلمة معرفة معناها لا مجرد التلفظ بها، فاما من أتى بحروفها ولم يعلم بها فإنها لا تنفعه يوم القيمة، ولا تكون سببا لنجاته من النار والعياذ بالله. فالغاية من قولنا: "لا إله إلا الله" هي أن تخذه إليها ومعبودا ولا نوله غيره، والتأله كما تقدم هو التحبب والتودد إليه سبحانه؛ فلا بد لمن يعمل بلا إله إلا الله أن يحب الله من كل قلبه أعظم محبة، ولا بد له أيضاً أن يتذلل الله وأن يتواضع له غاية التواضع، وأن يعظمه غاية التعظيم، ويرجوه غاية الرجاء، ويحافظه أشد الخوف، ويخشى ويحضره له سبحانه. فإذا كان كذلك فإنه يكون قد حقق العبادة ولا بد مع ذلك أن يخلع تاله غير الله من قلبه؛ فلا يذل لغيره، ولا يخضع لغيره، ولا يرجو إلا إيه، ولا يحب غيره كمحبته، ونحو ذلك، ومن كان كذلك فإنه يكون من أهل لا إله إلا الله. وأما الذين يقولونها بالسنته ثم يقعون في خلافها وفيما ينقضها فإنها لا تنفعهم؛ لأنهم جهلاء بمدلولها، فهم يقولونها لهم عاصما للدم والمال ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - عدة أحاديث في الأمر بقتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، وفي بعض الألفاظ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكوة، وفي بعضها: من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يبعد من دون الله، وفي بعضها: من دون الله إلى حديث طارق بن أشيم الأشعري الذي بل ولا الإقرار بذلك، بل أضاف إلى ذلك الكفر بما يبعد من دون الله يشير الشيخ وفقه الله إلى حديث طارق بن أشيم الأشعري الذي رواه مسلم برقم (23) قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يبعد من دون الله، حرم ما له ودمه، وحسابه على الله". . التبيه الثاني: إن كثيراً من الناس يفسرون لا إله إلا الله "بأنه لا خالق إلا الله، أو لا رازق إلا إيه، أو نحو ذلك، أو يقولون إن معناها: لا نعبد إلا الله ولا نصلي إلا له... إلخ. لكنهم لا يدركون ما يعني العبادة التي خلقوا من أحجلها فيصرفونها لغير الله ولا يشعرون بذلك؛ فإن كل طوعية لمخلوق وذل له وخضوع له هو عبادة له في الحقيقة، فمن صرفها لغير ميت، أو لغيرولي، تذلل له، وخضع ودعاه، وناداه وهتف باسمه، وزبح له مثلاً، فإنها عبادة له في الحقيقة، وإن لم يعترف بذلك. فهذا ما عبد الله حق عبادته، بل أشرك به سبحانه؛ فلا يكون من أهل كلمة لا إله إلا الله الذين تعمّص دمائهم وأموالهم. التبيه الثالث: ليعلم أن لهذه الكلمة العظيمة شروطاً سبعة لا بد من معرفتها: أولها: العلم المنافي للجهل؛ والدليل قوله تعالى: { فَاغْلُمْ أَلَّهَ لَأِلَّهَ لَأِلَّهَ } [محمد: 19]. والذين يقولونها ولا يعلمون معناها قد يقعون في خلافها أو في ما ينافيها، فلا بد من العلم بمعناها. الثاني: اليقين المنافي للشك؛ لأن المنافقين قد يقولونها لكنهم لا يوقنون بمضمونها، بل يشكون في ذلك، قال - صلى الله عليه وسلم - { أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة } أخرجه مسلم برقم (27)- 44 في الإيمان، باب: "الدليل أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً"، عن أبي هريرة رضي الله عنه. . وقال - صلى الله عليه وسلم - { من لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فيبشره بالجنة } آخرجه مسلم برقم (31)- 52 في الإيمان، باب: "الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً"، عن أبي هريرة رضي الله عنه. . الثالث: الإخلاص المنافي للشك؛ لأن بعضنا من الناس قد يقولونها ولكنهم لا يخلصون دينهم لله، بل يصرفون بعضه لغير الله كاليهود مثلاً، قال تعالى: { وَمَا أَمْرُوا إِلَّا يُعْبُدُوا اللَّهُ مُحْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } [آل بيته: 5]. وقال - صلى الله عليه وسلم - من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه { أخرجه البخاري برقم (99) كتاب العلم، باب: "الحرص على الحديث" ، عن أبي هريرة رضي الله عنه. . الرابع: الصدق المنافي للشك؛ لأن هناك من يقولها مذكراً بها، فلا يكون صادقاً في تلفظها بها، قال - صلى الله عليه وسلم - { ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار } أخرجه البخاري واللفظ له برقم (128) في العلم، باب: "من حصل بالعلم قوماً دون قوم كراهيته أن لا يفهموا". ومسلم برقم (32)- 53 في الإيمان، باب: "الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً" ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه. . الخامس: المحبة المنافية للكره والبغض؛ فلا بد أن يكون قائلها محباً لله غاية المحبة، ومحباً كذلك لعبادة الله. السادس: الانقياد المنافي للتردد أو التكبر، فلا بد أن يكون قائلها مقبلاً على عبادة الله بكل قلبه. السابع: القبول المنافي للرد؛ فيجب على من قالها أن يتقبل كل ما جاء عن الله على ألسنة الرسل فلا يرد شيئاً من لوازمه ومقتضياتها. التبيه الرابع: قال شارح العقيدة الطحاوية انظر شرح العقيدة الطحاوية، صفحة: 43- 44- تحقيق الدكتور عبد الله الترجمي. " وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهدت به ملائكته وأنباؤه ورسله: قال تعالى: { شَهَدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ أَوْلُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [آل عمران: 18]. فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع طوائف الصالل، فتضمنت أجل شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها، من أجل شاهد، وبأجل مشهود به. وعبارات السلف في "شهد" تدور على الحكم والقضاء، والإعلام والبيان، والإخبار، وهذه الأقوال كلها لا تناهى بينها، فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه، فلها أربع مراتب: فأول مراتبها: علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته. وثانيها: تكلمه بذلك، وإن لم يعلم به غيره، بل يتكلم بها مع نفسه ويذكرها وينطق بها، أو يكتبهما. وثالثها: أن يعلم غيره بما يشهد به، ويخبره به، ويبينه له، ورابعها: أن يلزمها بمضمونها ويأمره به". .